آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية
السنة السادسة عشرة، العدد الأول، الربيع و الصيف ١٤٣٤ هـ.ق، صص ٤٩ – ٦٤

الصلات بين الحضارتين الإسلامية و الرومانية

(اعتماداً على العلاقات السياسية بين الرشيد و شارلمان)

رمضان رضائی*

يدالله رفيعی**، **پریناز علی اکبری*****

الملخص

أصبحت العلاقة بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية خلال أيام الرشـيد عدائيـة أكثر من ذی قبل. من ناحية أخری كان التفاهم الذی توطّد بين العباسيين والفرنجة مـن أهم الاسباب التی حالت بين البيزنطيين وبين مواصلة العدوان بخوفهم من تعاون الطرفين عليهم والذی لم يختف بوفاة الرشيد؛ بل ظلت أواصره معقودة حتی أوائل عصر المأمون. خلف شارلمان الكبير، أباه ببين القصير علی عرش فرنسا، وعلاقته مع القسطنطينية غيـر حسنة علی ما كانت عليه فی عهد والده. وأراد البابا أن يستفيد من قوة شـارلمان. ولـذا رغب البابا فی تتويج شارلمان فدهنه بالزيت المقدس وألبسـه تـاج الإمبراطوريـة فـی أواخر القرن الثامن. وكان شارلمان مضطراً للحفاظ علی علاقات دبلوماسية مع بغداد، إذ كان لهما عدوّ مشترک وهو الدولة الأموية فی الأندلس. فشارلمان لم يتقرب إلی الرشيد ولم يجب هذا طلبه ويبادله الصداقة و المودة إلّا إذا إقتضت مصالحهما السياسـية. هـذه الأمور وعوامل أخری ساعدت علی استئناف الصـلات بـين الخليفـة هـارون الرشـيد وشارلمان الكبير.

الكلمات الرئيسة: الإسلام، الرومان، هارون الرشيد، شارلمان، العلاقات السياسية.

---

* أستاذ مساعد، فی أكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية (المسؤول عن المقالة) drr_rezaei@yahoo.com

** أستاذ مساعد، فی أكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية rafiei_y20@yahoo.com

*** طالبة الدكتوراه و مدرّسة، فی مركز مواهب العالية للبنات فی بناب P.aliakbari@chmail.ir

تاريخ الوصول: ١٣٩١/١٢/١٢، تاريخ القبول: ١٣٩٢/١/١٨

١. المقدمة

إنّ العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين قديمة، ترجع إلى عصر الرسول (ص) كما في سرية موتة وغزوة تبوک، وفی عصر الراشدين تمكّن الخليفة الثانی «عمر بن الخطاب» أن يفتح بلاد الروم ويستردّ بيت المقدس من أيديهم، ومن وقتها زادت حدّة التوتر بين المسلمين والروم، وغلب عليها الطابع العدائی؛ نظراً لإختلاف الديانة، ولأهمية مدينة بيت المقدس وكنيسة القيامة التی يحجّون إليها، إضافة إلى الحدود المتشابكة بين الطرفين والغارات المتواصلة، وعليه فقد أصبحت الحرب بين المسلمين والبيزنطيين فی العصر العباسی لاتعدو تبادل الغارات، وما يصحب ذلک من تدمير وتخريب وقتل وسبی، ولم تنقطع غزوات المسلمين عن بلاد البيزنطيين فی عهد «هارون الرشيد». واستمرت هذه الحالة بين المسلمين والبيزانطيين حتی نهاية عصر العباسی. وكان النفوذ البيزنطی قابعاً فی شمال الشام بعد تأسيس العباسيين دولتهم فی العراق سنة ١٣٢ هـ/ ٧٤٨ م. حيث تحصن الروم فی مواقع حصينة فی جبال طوروس وآسيا الصغری وبحر مرمرة (أحمد محمود، ١٩٨٠: ١٥٥).

وأخذوا يطلّون من جبال طوروس على المسلمين ساعات الضعف أو الانشغال ويتراجعون إليها فی ساعة القوة، وبداية انتهز الإمبراطور «قسطنطين الخامس كوروليموس» (٧٤١-٧٧٥ م) فرصة انشغال العباسيين بأحداث إقامة دولتهم والتمكن لأنفسهم ومواجهة المشاكل المركزية والإقليمية وأغار فی سنة ١٣٣ هـ/ ٧٥٠ م على منطقة الحدود بين المسلمين والروم وأتی على جهود المسلمين فی التحصين، ودمّر خطّ حصون الفرات؛ ثم الخطّ الممتد من نهر الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط، وهدّد النظام الثغری كلّه تهديداً خطيراً فحاصر «ملطية» واستسلم أهلها له، ولذلک اهتم «أبوجعفر المنصور» (١٣٧-١٥٨ هـ) بتحصين الحدود (البلاذری، ١٤٠٣: ١٩١).

وتابع «المهدی» (١٥٨- ١٦٩ هـ) السير على درب أبيه فی بناء الحصون، وحشد الجند ومحاولة تأمين حدود الشام من غارات البيزنطيين. فتصدی للإمبراطور البيزنطی «ليو الرابع» (٧٧٥- ٧٨٠ م) وأرسل عدة حملات منها حملة بقيادة «الحسن بن قحطبة» سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٧ م الذی دخل بلاد الروم، وثقلت وطأته على أهلها حتی صوّروه فی كنائسهم (البلاذری، ١٤٠٣: ١٩٤).

ولقد أثمرت إستراتيجية المنصور وابنه المهدی فی شمال الشام، وأصبحت مدنه حصناً منيعاً للقوات الإسلامية يهاجمون منه القوات البيزنطية التی لا تفتأ فی الإغارة على المسلمين من حين لآخر، وكانت سنّة حميدة طبّقها من جاء بعدهم من خلفاء بنی العباس حتی إذا اكتملت وأصبحت درعاً يقی المسلمين من أخطار أعدائهم.

حتى وصل الدور إلى «الرشيد» سنة ١٧٠ هـ فقد اطّلع بنفسه على خطر البيزنطيين على المسلمين، ورأى أنّ خطرهم سيبقى قائماً طالما بقيت الحدود مفتوحة بين الجانبين؛ لذا عوّل على إتمام ما بدأه أسلافه، فأنشأ التحصينات على المناطق المخوّفة، لتكون جميعاً بمثابة الحصن الحصين الذى يحمى دار الإسلام من ناحية وليتخذوها قواعد لهم يشنون منها حملاتهم على أراضى الدولة البيزنطية من جهة أخرى (عبدالعزيز فرج، ١٩٨٢: ١٦٤).

وكانت العلاقة بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية خلال أيام الرشيد عدائية متواترة، إلا ما تخلّلها من بعض المهادنات، فبعد أن إستكمل الرشيد تحصينات الثغور المتاخمة للبيزنطيين، وأقام منطقة العواصم؛ وواصل سياسة آبائه وأجداده وشنّ الحملات على أرض الروم، وأظهر القادة المسلمون وفى مقدمتهم الخليفة هارون الرشيد صوراً من البطولة والشجاعة جعلت الروم ينهزمون أمامهم مرات عديدة، فأمّن المسلمون ثغورهم وباغتوا عدوّهم فى داخل أرضه.

كان التفاهم الذى توطّد بين العباسيين والفرنجة من أهم الأسباب التى حالت بين البيزنطيين وبين مواصلة العدوان بخوفهم من تعاون الطرفين عليهم والذى لم يختف بوفاة الرشيد، بل ظلت أواصره معقودة حتى أوائل عصر «المأمون»، وحين نقرأ أنّ آخر السفارات التى وصلت إلى البلاط العباسى كانت سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م (لويس، ١٩٦٠: ١٩٨). وقد أشارت المصادر بأن التفاهم بين الجانبين العباسى والفرنجى إستمر بعد الرشيد مدة طويلة. والسوال الأساسى الذى تطرحه هذه المقالة هو أنّه: هل كانت بين الغرب والشرق علاقات سياسية؟ وأهمية هذا السوال الخطيرة فى علاقات اوروبا وآسيا فى تلك القرون الماضية وأيضا له أهمية فى تاريخ النصرانية والاسلام. الإجابة عن هذا السوال يبين لنا أهمية الحوار بين الحضارات الهامة القديمة، مثلا بين الإسلام والرومان وأهميته لدى الشعوب المختلفة خاصة بين الغرب والشرق.

٢. خلفية البحث

عندما طرحت مسألة الحوار بين الحضارات و الثقافات من قبل المنظمة التابعة للامم المتحدة «يونسكو» خطر الى البال كيفية هذا الحوار بين الحضارات الهامة القديمة مثلا بين الإسلام والرومان. دراسة المصادر اللاتينية الموجودة فى هذا المجال تبين لنا الإضطراب والغموض فى هذا المجال. «أما المصادر الشرقية، الإسلامية والمسيحية تخلو من الإشارة إلى أيّة صلة بين الرشيد وشارلمان» (الدورى، ٢٠٠٦: ١٥١). وأما المصادر اللاتينية التى عالجت هذا الموضوع هى: ١. كتاب *سيرة شارلمان* لاينهارد، ترجم «عادل زيتون» هذا الكتاب من اللاتينية إلى العربية وقدّم له وعلّق عليه وطبع سنة ١٩٨٩ فى دمشق. يشير هذا الكتاب إلى علاقات سياسية بين

الأميرين ودرس مسألة السفارة بينهما بالتفصيل؛ ٢. *الأخبار الملكية* و *رواية الراهب سنت كول* وقد إعتبر بعض الباحثين كتاب الأخبار الملكية من باب الأساطير. وأشار هذا الكتاب ايضاً إلى وجود علاقات بين الرشيد وشارلمان. أما فى المصادر العربية القديمة فلا توجد أيّة إشارة إلى هذه الصلات؛ ولكن أشارت بعض المصادر الجديدة إلى جوانب من هذه الصلات ومنها: «الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان» لعفاف سيد صبره التى طبعت سنة ١٩٨٢ والمقالة التى ألّفها «زهدى الدايه» تحت عنوان «هارون الرشيد وشارلمان» وعالجت هذا الموضوع فى ثلاث صفحات فقط واخيراً مقالة «وسام عبدالعزيز فرج» تحت عنوان «دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية» أشارت إلى وجود العلاقات بين الحضارتين.

١.٢ هارون الرشيد و تاريخ حياته

تولى هارون الرشيد الخلافة فى ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ هـ وهو أوسع الخلفاء العباسيين شهرة وأعظمهم رونقاً وأشدّهم فى الخيال تأثيراً فقد امتزجت فى أخباره حقائق التاريخ بروعة الخيال ومبالغة الأقاصيص فأصبح رمز العصر الذهبى فى الاسلام، واكتسى بمجموعة من الصفات البعيدة الاختلاف والتى يندر أن تجتمع فى شخص واحد. فهو يصوّر حينا الخليفة الباذخ المسرف فى الترف، ويصوّر حيناً آخر الخليفة المحارب القوى الفعال الذى أذل أعداء الاسلام وفرض الجزية على الروم. وهو يظهر بمظهر الخليفة الحذر الذى يبث شبكة من الجواسيس ليعرف أمور الناس وأحوالهم ولا يكتفى بذلك؛ بل يطوف الأسواق ويزور المجالس متنكراً ليعرف بنفسه ما يدور (ابو خليل، ١٩٩٩: ١٥–٢٤).

وبعد هذا فهو (الرشيد) سياسى ماهر، فيه حزم المنصور وعنفه وأساليبه، مع مرونة وسخاء بالمال لاصطفاء الناس. ثم نراه صديق العلماء والشعراء يقربهم ويكرمهم، ويشجع حركة الترجمة بسخاء عظيم. فالطبرى يطنب فى وصف تدين الرشيد، ثم يذكر أنه «كان يقتفى آثار المنصور إلا فى بذل المال فإنه لم ير خليفة قطّ قبله أعطى منه للمال» (الطبرى، د.ت: ١٠/ ١١٣) وفى عهده تقدمت الحضارة والعلوم. وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ.

٢.٢ شارلمان و تاريخ حياته

ولد شارلمان سنة ٧٤٢ فى قصر «أنجيلهيم» قرب «ميانس (منز)» من أعمال «جرمانيا» وتربّى كما كان يتربّى أولاد الملوك فى تلك الأيام. ربّاه أساتذة من علماء «الأكليروس» وتمرّن على الصيد وركوب الخيل ونحو ذلك وكان عوناً لأبيه فى حروبه بإيطاليا. وثارت مقاطعة اكويتانيا مرة،

فعهد إليه بإخماد ثورتها ففعل وظهرت عليه مواهب رجال الحرب والسياسة مـن ذلـک الحـين. وكان له أخ اسمه «كارلمان» على اسم عمه، فلما توفى «ببـين» سـنة ٧٦٨ م انقسـمت مملكـة فرنسا فيما بينهما على ما اقتضته عادة تلک الأجيال، فكان نصيب شارلمان من القسمة مقاطعات نوستريا وبورغونيا واكويتانيا؛ ثم توفى كارلمان سنة ٧٧١ م فأفضى الأمر كلّه إلى شارلمان. فلمّا استقلّ بالملک بادر نفسه إلى توسعة مملكته ونشر نفوذه وتأييد سلطانه وكانت المملكة الرّومانية قد انقسمت إلى المملكتين الشرقية والغربية وعاصمة الأولى القسطنطينية وعاصمة الثانية، روميـة. ولكن الغربية سقطت فى أواسط القرن السادس للميلاد فانضمّت بقاياها إلـى المملكـة الرومانيـة الشرقية الأرومية فإنّها استقلّت تحت سلطة البابوات (بلا اسم، ١٣١٥: ٤٠٢).

أما الشرق فكان قد ظهر فيه الإسلام وامتدّت سلطة العـرب إلـى أقاصـى الأرض؛ مشـرقها ومغربها على عهد الخلفاء العباسيين فى بغداد والامويين فى الاندلس باسبانيا وهو عصـر العـرب المسلمين أو التمدّن الاسلامى وكانت سلطة شارلمان إذ ذاک محصورة فى نحو مـا هـو مملكـة فرنسا الآن فأخذ فى توسعتها.

وفى سنة ٧٩٥ م توفى البابا «أدريان» فخلفه «ليـو الثالـث» فأرسـل إلـى شـارلمان العلـم الرومانى وطلب إليه أن يرسل مندوباً يأخذ له البيعة على الشعب الرومـانى ويـدلّ ذلـک علـى إعتراف البابوات بسلطة شارلمان على المملكة الغربية وفى سنة ٧٩٩ م شكا أقارب البابا السابق من ليو الثالث وانقضوا عليه فى بعض الشوارع فاهانوه وضربوه ثم أوثقوه وحجروا عليه فى ديـر ولكنه نجا وفرّ إلى شارلمان فاستقبله بترحاب عظيم وأعاده إلى روما معززاً مكرّمـاً. وفـى سـنة ٨٠٤م عاد السكسونيون إلى العصيان ولكنّهم اضطّروا إلى الخضوع التامّ فنقلت عشرة آلاف عائلة منهم إلى فرنسا ولم تقم لهم قائمة من ذلک الحين بعد أن جاهدوا فى سبيل اسـتقلالهم ٣٢ سـنة (سيد صبره، ١٩٨٢: ٥٤ – ٥٧).

ثم ثار النورمانديون فى شمالى فرنسا ولكنهم ما لبثوا أن سمعوا بقدوم شارلمان حتى عـادوا القهقرى فلمّا سمع شارلمان برجوعهم بكى فسئل عن سبب بكائه فقال إنه يبكى على ما سـينال أوربا من هجمات هؤلاء النورمانديين بعد مماته (بلا اسم، ١٣١٥: ٤٠٦). وقضى شـارلمان بقيـة حياته عاملا على إصلاح بلاده وله الفضل الأكبر فى نشر النصرانية فى أوربا وإحياء معالم العلـم فى تلک الأجيال المظلمة هناک.

٣.٢ الخلافة العباسية و الدولة الفرنسية

«كانت العلاقات بين الروم وبين المسلمين مستمرة من أيام بنى أمية إما لصلح أو مهاداة أو مفاداة.

وقد حاصر الامويون القسطنطينية غير مرة ولم يفتحوها ولكنهم فتحوا بلاد أخرى من أوروبا وأوقعوا الرعب فى دول الافرنج وكذلک بنوالعباس؛ فإن الرشيد أخذ الجزية من «ايرينى» صاحبة القسطنطينية» (الدورى، ٢٠٠٦: ١٥٢). وقد كانت هدايا ملوك الروم إلى دار الخلافة متواصلة وأكثرها من السيوف والثياب والأطياب والذهب وغيرها. وكانت الحال هكذا مع الافرنجة فى أيام الرشيد ومن بعده.

أما الأسبان وملوک الإفرنج فكانت الصلات أكثر وثوقاً بينهم وبين ملوک الإسلام وعلى الأخص فى الاندلس لأنّ قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الخلفاء الامويين فى قرطبة ليستنصروهم على العباسيين أعداء الجانبيين. حتى أنّ «ثيوفيلوس» ملک الروم المعاصر لعبد الرحمان الاوسط هاداه ٢٢٥ هـ وكتب إليه يرغبه فى ملک المشرق من أجل ما ضيق عليه به «المأمون» و «المعتصم». وقس على ما تقدم صلات ملوک أوربا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر ولاسيما فى زمن الفاطميين بعد أن ضخمت دولتهم. منها هدية بعث بها الإمبراطور «قسطنطين التاسع» إلى «المستنصر بالله الفاطمى» سنة ٤٣٧ هـ اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب الاحمر كل قنطار فى عشرة آلاف دينار. وذكر المقريزى أنّ رسول الروم كان إذا قدم القاهرة نزل عند باب الفتوح ولايزال على الارض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة (المقريزى، ٢٠٠٢: ٢/ ١٠٧).

ويذكر المؤرخون الأوربيون أنّه خرجت بعثات سياسية من بلاد الفرنجة وقصدت مدينة بغداد كما أنّ الخلافة العباسية أرسلت وفوداً الى فرنسا. وجرت تلک العلاقات الودّية بين الشرق والغرب فى أواخر القرن الثامن للميلاد وفى أوائل القرن التاسع وأول وفد أتى من فرنسا الى العراق أرسله ببين القصير سنة ٧٦٢ م أو سنة ١٤٦-١٤٧ الهجرية. وقبيل ذلک التاريخ كان المنصور قد أنجز عمارة بغداد وجمّلها حتى أصبحت عروس الشرق وجنة الأرض وغرّة البلاد. فشرعت تفد إليه (المنصور) الوفود من الروم والفرنسيس. لم يسهب المدنيون الفرنسيون فى أخبار تلک البعثة وغايتها السياسية بل جلّ ما ذكر عنها فى صحف ذلک العهد أنّ رحلة السفراء دامت ثلاث سنوات وقد توسطوا فى مبادلة الهدايا الجليلة بين‌الملكين على أنّ العرب أغفلوا ذكر هذه البعثة السياسية فى مدوّناتهم. أو أننا لم نقف عليه فى ما لدينا من كتب القوم المطبوعة والمخطوطة. مع أنّ مؤرخينا لم يضربوا صفحاً عن ذكر لطريق الروم الذى زار حاضرة العباسيين فى تلک السنة عينها أى سنة ١٤٦ هـ بل استوعبوا أخبارها وأحاطوا بأطرافها ووصفوا وصفاً دقيقاً زيارة ذلک الوفد وما لاقاه فى مدينة السلام. فإن صحّ خبر الوفدين؛ وفد الروم ووفد الفرنسيين. فلا يبعد أنهما تبادلا السلام فى قبّة الإسلام، وتصافحا مصافحة الأخدان فى وادى

دجلة ولم يكن ببين القصير آخر من سعى إلى خطب ودّ العباسيين من بنى قومه بل حذا حـذوه شارلمان فأرسل بعثة إلى العراق سنة ٧٩٧ م مؤلفة من ثلاثة رجال؛ جاوؤا بغداد فى عهد هارون الرشيد وكان بينهم إسحق اليهودى (غنيمة، ١٣٣٩: ٥١٠).

وقد أسرع هارون الرشيد و أخبر شارلمان بتلک الهبات بوفد خاص أنفذه إليه بوساطة بطريرک اورشليم وكان مؤلفاً من راهبين الواحد من دير مارسابا والآخر من جبل الزيتون وكان معهما القـس «زكريا» الذى كان مرسلا من لدن البابا إلى البطريرک فى هذه المهمة عينها. وصلت هذه البعثة إلـى رومة فى ٣٠ تشرين الثانى سنة ٨٠٠ م وكان الملک يومئذ هناک فسلمت إليه باحتفال شائق مفاتيح القبر المقدس وعلم مدينة اورشليم و ذخائر قيّمة. وكان لنجاح هذه السياسة الباهرة صدى استحسان فى الأندية السياسية والمحافل الدينية فى اوروبا. ويذهب بعض الكتبة إلى أنّ الباب الأون الثالث لم يسمح لشارلمان أن يكون إمبراطوراً على الغرب فى ٢٥ كانون الاوّل (دسمبر) من تلـک السـنة إلا لنجاحه فى الشرق. وفى سنة ٨٠١ م بعث هارون الرشيد رسلا إلى إمبراطور الغـرب فـالقوا عصـا ترحالهم فى مدينة بيزا وقابلهم شارلمان فى موضع بين ايفرا وفرسيل ومما لا مرية فيه أنهـم قـدموا إليه النص المؤيد رسمياً حقّ حمايته الأرض المقدسة. فاستنشدهم أخبار وفده الذى كان قد أرسـله إلى الشرق سنة ٧٩٧ ولم يرجع إليه فاخبروه بما كانوا يعلمون (غنيمة، ١٣٣٩: ٥١١).

أما ما كان من أمر رسل شارلمان الذين اوفدهم بادىء بدء إلى العراق وسأل عنهم فإنّ اثنين منهم لقيا حتفهما فى بلاد الغربة ولم يرجع إليه الثالث وهو «إسحق اليهودى» إلا فى سنة ٨٠٢ م. وكان معه هدايا نفيسة أتى بها من هارون الرشيد وبينها فيل عجيب أضحى أحدوثة ذلک العصـر والمصر. ويروى التاريخ أنّ فى سنة ٨٠٢ استأنف شارلمان أمر الوفود إلى خليفة المسلمين وأنفذ جماعة برئاسة «راتبرت». وقابله هارون الرشيد بوفد ثان ومعه هدايا نفيسة وذلک فى سنة ٨٠٧ وكان رسول الخليفة عبدالله وبرفقته مندوبان من قبل بطريرک اورشليم ومعه ساعة عجيبة وخيام من كتان متضاربة الالوان.

٤.٢ هارون الرشيد و شارلمان

من المشهور فى بعض كتب التاريخ أنّ الخليفة هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان كانا يرتبطان بعلاقات سياسية، وكانت بينهما صلة ودية جعلتهما يتبادلان الهـدايا والرسـل ويجامـل أحـدهما الآخر فى كثير من الأحوال، حتى قيل إنّ هارون الرشيد سلم مفاتيح كنيسـة القيامـة لشـارلمان، وأنّه قد سمح له بحماية بيت المقدس مما جعل لشارلمان الحـق فـى أن يلقـب باسـم «حـامى الأراضى المقدسة» إلى غير ذلک مما يزعمه الزاعمـون، ويروونـه عـن العلاقـات بـين ذينـک

الملكين. ولكن الكتب التاريخية العربية كآثار الطبرى وابن الأثير وأبو الفداء وابن خلـدون وابـن خلكان والمسعودى والسيوطى خالية من أىّ إشارة إلى العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان.

من الباحثين من يعتقدون أنّ هنالک علاقات بين هارون الرشيد وشـارلمان، ومـن ينكـرون وجود أيّة علاقات بينهما وهم يعتقدون أنّ هذه العلاقات التى نسبت إليهما ليسـت إلا خرافـات إخترعتها عقول الرهبان والمؤرخين فى القرون الوسطى تعظيماً لشارمان.

أما الذين ينكرون وجود أيّة علاقة بين الرشيد وشارلمان؛ فيقولون إنّ كتـب حيـاة **شـارلمان لاينهارد** والأخبار الملكية ورواية الراهب **سنت جول** تعتبر من المصادر اللاتينية التى تنفرد بذلک وإنّ ذكر العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان كانت لعـدم فهـم هـؤلاء الكتّـاب فهمـاً علميـاً صحيحاً. وقد ذكر كتاب حياة شارلمان تسع بعثات بين شارلمان وبطريک القدس. ولكن هـذا لا يستنتج منه أنّه كانت هناک علاقات بين هذين الملكين وقد تدرجت هذه الاسطورة حتى لعبـت دوراً مهماً فى تاريخ القرون الوسطى وأصبحت فيما بعد حقيقة تاريخية مثبتة إقتبسها المؤرخـون وبنوا عليها القصور العالية فى الهواء. و« أول من ذكر العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان هـو القديس «جول» وهذا إخترع قصة الهدايا التى تبودلت بين هـارون الرشـيد وشـارلمان كالفيـل ابوالعباس والأسد التوحيدى وهدايا شرقية أخرى. وزعم هذا الزعم سـنة ٩٢٥ م أى بعـد مـوت شارلمان بمائة وإحدى عشرة سنة. وإعتمد فى ذلک علـى كتـاب «حيـاة شـارلمان» لاينهـارد وعلاوة على ذلک جعل شارلمان حامى الأراضى المقدسة، ولعل القديس جول أساء فهم ما كتبه اينهارد» (الدورى، ٢٠٠٦: ١٥٢–١٥٦).

وقد كتب الراهب «رشنو» بعد القديس جول يثبت ما كتبه جول وزاد عليه قصة أخرى. وهى أنّ أحد أمراء الشرق توجّه الى أوربا يحمل شظايا من الصليب المقدس والكأس التى شرب منها السيد المسيح ليهديهما لشارلمان. فعل ذلک لأنّ شارلمان هذا كان حاميا للأراضى المقدسة. ولكن قبل وصوله إلى مقر شارلمان مات فى جزيرة كريت وأرسل ما معه (أى شظايا الصليب والكأس) مع رسول آخر. وغاية الراهب رشنو هى اشتهار صومعته «اليت» تحتوى على شظايا من الصليب والكأس المقدمة. وفى سنة ٨٦٩ م. كتب الراهب بنوا أعجب من ذلک كلّه، فقد زعم أنّ شارلمان زار القبر المقدس ووهب لهارون الرشيد الأراضى المقدسة وجعله حامياً لها. ولم يمض على هذه القصص قرنان حتى أصبحت حقائق تاريخية لا غبار عليها (الدايه، ١٣٥٠: ٩٦٨).

أما الذين يعتقدون أنّ الصلات السياسية كانت موجودة بين هذين الاميـرين فيسـتندون إلـى العوامل التى دعت إلى إنشاء العلاقات وهى أنّه فى سـنة ١٣٢ هــ (٧٥٠ م) اسـتولت الجيـوش المسوّدة على جيوش الدولة الاموية، وخلفتها الدولة العباسية، وكانت أعظم دولة فى الشرق. ورث

العباسيون عن الأمويين الحروب المستمرة مع البيزنطيين، الـذين كـانوا ينافسـونهم فـى الشـرق، وصارت لهم غزوات متتالية فى كلّ سنة تسمّى بالصوائف. وكانت لهم الثغور المحكمة المشـحونة بالجيوش والعدد، للدفاع عن بلاد الإسلام. ويرابط فى الثغور المتطوعون، وبعضـهم ممـن أوقفـوا أنفسهم للدفاع عن البلاد الإسلامية، خاصة وإنّ المرابطة فى هذه الثغور مـن أهـم الأمـور التـى تقرب العبد من الله تعالى.

وصار للثغور والعواصم إدارة مستقلة، يتولاها أهم القادة الذين لهم إطلاع واسع فى الحـرب. واستمرت الحروب بين العباسيين والروم، فلكلّ خليفة غزوات وزحوف إلى بلاد الإناضـول، ولا ننسى ما فعله هارون الرشيد بمدينة هرقلة، وزحف المعتصم على عمورية، وفتكله بالروم.

أما فى الغرب؛ فبعد قيام دولة العباسيين بسنتين (٧٥٢ م) ثار ببين القصـير، حاجـب الملـک «شلدريک الميرفنجى» بوجه الدولة، لما شاهده من ضعفها، واستفتى البابا فيمن يجب أن يتـولى الملک: «هل يكون حامل لقب بلا قوة؟ أو صاحب قوة بلا لقب؟» (الديوه چى، ١٣٨٤: ١٢٦).

و كان البابا يرغب بقيام دولة قوية فى الغرب، تكون سنداً له فـى مقاومـة القسـطنطينية التـى لا تعترف به. فأجابه البابا: «أنّ صاحب القوة هو الذى يستحق اللقب والملک» وهكذا انتقل الملک فى فرنسا الى الاسرة الكارولوفنجية، ولم تكن علاقتها مع القسطنطينية حسنة، وحاول ببين (هـو أبو شارلمان) أن يسوى العلاقة بينهما. ولكن مطاليب البابا، الإعتراف بكنيسته البابويـة، واحتـرام الصور الدينية، الخ. عرقلت الأمر وباء بالفشل (المصدر نفسه: ١٢٧).

وفى سنة ٧٧٨ م/ ١٦٢ هـ تجاوز شارلمان بعساكره جبال البيرينة فضبط ولاية نافار وولايـة قطولونيا وتقدم على ضفاف نهر ايبر حتى بلغ مدينة سرقسطة مركز ولاية اراغون وألقى الحصـار عليها وكانت بيد المسلمين فبعث إليه «عبدالرحمن الأول الأموى» الملقب بالعادل بجيش مـنظم، طرد به عساكر شارلمان وأرجعها إلى ماوراء البيرينة. ثم دامت هذه الحروب طويلا بـين عـرب اسبانيا وجند شارلمان إلا أنّ الافرنج لم ينالوا من ورائها ربحاً كبيـراً فـى تلـک الجهـات. وأمـا شارلمان لم يتمكن من إسبانيا ولكن حكمه كان نافذاً فى عموم اوربا الغربية وكان البابا وجميـع الاكليروس يميلون إليه ويرغبون فى إعادة نفوذ إمبراطوريـة الرومـان الغربيـة ليضـاهوا بـذلک الإمبراطورية الشرقية القائم بها قياصرة الروم وليحصلوا على النفوذ الـذى حصـل عليـه بطارقـة القسطنطينية وكهنتها، ولذلک رغب البابا فى تتويج شارلمان فدهنه بالزيت المقدس وألبسـه تـاج الإمبراطورية فى أواخر القرن الثامن أى سنة ٨٠٠ للميلاد (اينهارد، ١٩٨٩: ١٤).

أما فى الاندلس فقد فرّ عبد الرحمن الداخل إليها، وأسس فيها الدولة الأموية، وقضـى علـى المنازعات الداخلية، وصار هو رئيس دولة مرهوبة الجانب.

وكانت بين المنصور و«الفرنک» صلات آنذاک وكان وصول الوفد إليه بعد الحملة التی شنها المنصور على الاندلس، (عبدالله عنان، ١٩٦٠: ٤/ ١٦٦-١٧٦). ولربّما أراد ببين أن يشعر المنصور بقوته، وأنّه يعاضده فيما يريده، خاصة وأنّ ببين كان يحذر من قيام عبد الرحمن فی الاندلس، كما كان يحذر من البيزنطيين أعداء المنصور. وعاد الوفد بعد ثلاث سنوات يصحبه رسل من الخليفة ابی جعفر المنصور يحملون هدايا نفيسة إلى ببين القصير (الدوری، ٢٠٠٦: ١٠٢).

استقبل الفرنک رسل الخليفة بحفاوة وإكرام وقضى الوفد فصل الشتاء فی مدينة متز وضرب لهم الملک ببين القصير موعداً لمقابلته فی ١٠ نيسان ٧٦٨ فی مدينة سيلس وفيها جرت مراسيم الزيارة وقدموا للملک الهدايا التی كانوا يحملونها إليه فسرّ بها كثيراً.

وبعد انتهاء مهمة الوفد أرسل معهم وفداً أوصلهم إلى مرسيليا، فنقلتهم سفينة إلى بلاد المشرق، ومهمة هذا الوفد وما دار بينه وبين الملک ببين لم يزل فی طی الكتمان. على أننا لا نشک أنّ الوفود التی ارسلت من الجانبين كان باعثها الحروب التی كانت تدور بين البيزنطيين والعباسيين من جهة، وعدم ارتياح العباسيين من قيام الدولة الأموية من جهة أخرى، وأنّها أدت إلى صلات ودية بين العباسيين والفرنک الذين كانوا يحذرون ممن يحذر منهم العباسيون (الديوه چی، ١٣٨٤: ١٢٧ - ١٢٩).

خلف شارلمان الكبير، ببين القصير على عرش فرنسا، وعلاقته مع القسطنطينية غير حسنة على ما كانت عليه فی عهد والده. وأراد البابا أن يستفيد من قوة شارلمان، فتوجّه سنة ٨٠٠ م إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة، ليقاوم به إمبراطورية البيزنطيين، الذين كانوا يرون أنّهم أحق من غيرهم بها. وكان البابا يسعى إلى توثيق صلاته ببطارقة المشرق فی بيت المقدس وأنطاكية والإسكندرية. وشاركهم فی مقاومة عبادة الصور والتماثيل المقدسة التی كان يذهب إليها أهل القسطنطينية وهذا مما دفع شارلمان أن يتقرب إلى بطارقة المشرق إرضاء للبابا، وطمعاً أن يكون حامياً للمسيحيين فی الديار المقدسة (اينهارد، ١٩٨٩: ١٠-١٣).

أصبح شارلمان فی أوربا أعظم ملوک زمانه إعترف له بذلک العدو والصديق فكان كما تقدم قد مهد دولة عظيمة فيها وأعاد مجد قياصرة الرومان وامتدت إمبراطوريته من البحر البلطيکی والبحور الشمالية شمالاً إلى شمال اسبانيا وأواسط إيطاليا جنوباً ومن الأتلانتيک غرباً إلى نهر اودر شرقاً. إلا أنّه كان مع ذلک دائم الفكر والقلق من هجوم أهل الإسلام عليه متخوفاً انحدار هذا السيل الجارف من العرب ثانية على مملكته واوربا برمتها من جهة الجنوب بعد أن صدّهم جدّه فی المرة الأولى. فأخذ من جهة يحارب كما سلف الخلفاء الأمويين الذين جدّدوا الدولة الإسلامية فی الأندلس ومن جهة أخرى يسعى فی إحكام صلات المودّة والإتفاق بينه وبين

عدوّهم اللدود، هارون الرشید، خلیفة العباسیین، کما أنّ قیاصرة القسطنطینیة کانوا یتقربون فی ذلک الوقت من الخلفاء الأمویین فی قرطبة یستنصرونهم علی العباسیین أعداء الجانبین.

ومن خلال الفتوحات الإسلامیة فی إفریقیا الشمالیة وشرق المتوسط وإسبانیا فی القرنین السابع والثامن، أزال المسلمون الهیمنة الرومانیة علی الخطوط البحریة فانعزلت الإمبراطوریة الغربیة عن الإمبراطوریة الشرقیة، البیزنطیة. وتلک التغییرات الجذریة أدّت إلی عزل **المیروفنجیین** فی شمال غربی أوروبا، وإلی صعود **الکارولینجیین** فی أعقابهم فی أواخر القرن الثامن، وإلی عزل إیطالیا حیث إضطر البابا إلی التحالف مع الکارولینجیین وتتویج ملکهم إمبراطوراً فی عام ٨٠٠ م.

ومن ناحیة أخری «لقد کان الکارولینجیون بحاجة للتجارة مع البلاد الإسلامیة من أجل الفضة، لکنّهم کانوا أیضا بحاجة لإبقاء المسافة بین الإمبراطوریتین لأسباب دینیة. لذلک لعب الفریزیون، الحدیثو العهد بالمسیحیة، دور الوسیط بینهما» (شلق، ١٤١٨: ٢٦٦). فقد کانت الکنیسة فی الإمبراطوریة الکارولینجیة تعارض الإسلام بشدة وترفض النقود الإسلامیة التی تحمل نقوشاً عربیة. لذلک کانوا یعمدون إلی إذابة هذه النقود وإعادة ضربها؛ لکنّ ذلک لم یمنع من تقلید شکل الدینار لدی الکارولینجیین وفی بریطانیا (المصدر نفسه). علی أیّ حال کان شارلمان مضطراً للحفاظ علی علاقات دبلوماسیة مع بغداد، إذ کان لهما عدوّ مشترک هو الدولة الأمویة فی الأندلس. وکانت بین شارلمان وهارون الرشید سفارات متبادلة. ولم یکن التبادل التجاری عبر الدنیبر والبلطیق قلیل الأهمیة؛ نظراً لتضاؤل تجارة المتوسط (المصدر نفسه: ٢٦٧). وملخص القول إنّ السیاسة والتجارة لعبت دوراً مهماً فی إنشاء العلاقات بین الطرفین.

وجدیر بالذکر أنّه لیس من شک فی أنّ هارون الرشید وشارل الکبیر، هما رجلا العالم فی أخریات القرن الثامن المیلادی وبدایة القرن التاسع. فالرشید یمثل الشرق بمدنیته المزدهرة طوال أیام حیاته وعظمته التی بلغت أوجها، وشارلمان الکبیر، یمثل الغرب، الآخذ إذ ذاک فی الاستقرار علی أثر نزوح القبائل الجرمانیة من مجالاتها فی أوربا الوسطی إلی أملاک الدولة الرومانیة الغربیة، والآخذ بتلک الأسباب التی جعلت منه فی النهایة باعث دول أوربا الوسطی والغربیة الحدیثة بأوضاعها السیاسیة والإجتماعیة والثقافیة المعروفة ولیس من شک فی أنّ کلا العاهلین العظیمین (الرشید وشارلمان) قد سمع بالآخر علی أقل تقدیر. فقد کانت بغداد منتجع السیاح والتجار الوافدین إلیها من مختلف أقطار الأرض، وکان لا یخلو الأمر من أن یجری علی لسان هؤلاء الوافدین فی أسواقها وأندیتها وبلاطها ذکر العاهل الفرنجی الکبیر. وکانت مدینة **آخن** هی کذلک مقصد السیاح والتجار واللاجئین السیاسیین الواردین من الشرق ومن قسطنطینیة وورومیة والأندلس فکان لا یخلو الأمر من أن یتحدث هؤلاء وهو بعاصمة الدولة الفرنجیة عن الحروب

الناشبة بين البيزنطية والعباسيين وعن أخبار الأمويين المتغلبين علـى الجزيـرة الإسـبانية. وعـن النصر القاطع الذى أحرزه الرشيد على الجيوش البيرنطية فى هضـاب آسـيا الصـغرى وأوديتهـا وسهولها. كلّ ذلک كان من شأنه أن ينقل إلى كلا العاهلين عن الآخر صورة مبهمة غامضة.

وهارون الرشيد فى نزاع مستمر مع البيزنطيين وقد أذلهم واضطرت ملكتهم إيرينى أن تـدفع إليه جزية سنوية على أن توقف هجماتها عن بلاد الاناضول، كما كانت تترقب حوادث الأمويين فى الأندلس بحذر، وكان شارلمان نفسه يحرض الثوار الأندلسيين على التمرّد ضدّ عبد الـرحمن الداخل، وأرسل حملة لمساعدتهم فرجعوا عنها خائبين.

كلّ هذه الأمور ساعدت على إستئناف الصلات بين الخليفة هارون الرشيد وشارلمان الكبير. وكان لبطريرک القدس يد فعالة فى هذه الصلات، وكان شـارلمان هـو البـادىء فـى كـل منهـا بالاستسفار، ولم يزد الرشيد على أن يردّ السفارة، بسفارة وعلى الهدية، بهدية مثلها.

على أىّ حال، فى أواخر سنة ٧٩٧ م أرسل شارلمان وفداً مؤلفاً من سفيرين وفرنجيين يقال لأحدهما «سجسمند» وللآخر «لنشفرد» ومعهما ترجمان يهودى يجيـد العربيـة اسـمه إسـحق فوصل القدس وقابل بطريرک القدس وأبلغه ما أرسل به إليه. ثم واصل الوفد سـفره إلـى بغـداد للاتصال بالخليفة هارون الرشيد. وكانت السفارات طويلة الأمد لبعد ما بـين المشـرق والمغـرب وصعوبة الانتقال بينهما فى ذلک الزمان: فالسفارة الأولى إستغرقت ما بين عـامى ٧٩٧ و ٨٠١ م (غنيمة، ١٣٣٩: ٥١٢). وتقول المصادر الفرنجية المتقدمة الذكر، أنّ الوفد عاد مـن بغـداد يحمـل موافقة الرشيد على ما طلب شارلمان، وأنّ سجسمند ولنشفرد توفيا أثناء العـودة، فعـاد اليهـودى وحده. على أنّ الرشيد لم يكتف بصرف وفد شارلمان مكرماً بل ردّ على السفارة، بسفارة مثلهـا، فأوفد إلى شارلمان سفيرين أحدهما «ابراهيم بن الاغلب» الذى صار إليه أمـر إفريقيـة، وبعـث معهما إلى شارلمان بهدية تليق بمقام المهدى والمهدى اليه، فيها أعطار وتحف شرقية نفيسة وفيها ساعة مائية دقاقة وفيل عظيم الخلق يكنى بأبى العباس. وتقول المصادر الفرنجية القبـر المقـدس ومفاتيح مدينة أورشليم نفسها (اينهارد، ١٩٨٩: ١٣). وإعتبرت المصادر ذلک بمنزلة نقل للسـلطة على بيت المقدس وحمايته الى العاهل الفرنجى.

ولا نعلم شيئاً مما دار بين الوفد والخليفة فكان هذا يسوده الكتمان وكلّ ما نعلمه أنّ الوفـد بقى فى بغداد مدة شهر ثم استقبله الخليفة. وأنّ هارون الرشيد أرسل وفداً إلـى شـارلمان سـنة ٨٠١ م وعلى رأس الوفد شخصان أحدهما فارسى، خرج من بغداد بأمر الخليفة، والآخـر مـن إفريقيا من قبل ابراهيم بن الاغلب أمير القيروان، وأمر شارلمان أن يستقبل هذا الوفد الذى مثل بين يديه فى تموز سنة ٨٠٢ م فى اكس لاشابل وأخبراه بأنّ الكونتين قد توفيا وأنّ إسحاق فى

طريقه إلى فرنسا. وقدموا لشارلمان الساعة المائية الدقاقة ورقعة شطرنج من العاج وفيلا اسمه عبد الله وهدايا أخرى.

ويظهر أنّ هذه الصلات لم تنقطع بل كانت متواصلة بين الطرفين. وفي سنة ٨٠٢ م أرسل شارلمان وفداً آخر إلى الخليفة هارون الرشيد، وكان أحد أعضاء الوفد اسمه «رادبرت»، وإنّه مضى إلى الأراضي المقدسة وقابل بطريرک القدس، ثم توجّه إلى بغداد وقابل الخليفة الرشيد وعاد سنة ٨٠٦ الى أوربا.

وبعد وصول هذا الوفد إلى الرشيد أرسل وفداً مؤلفاً من ثلاثة أشخاص: راهبين وشخص آخر إسمه عبد الله. فوصلوا شارلمان فى سنة ٨٠٧ م وحملوا إليه هدايا جميلة من تحف الشرق منها صيوان ملون بألوان متنوعة ومنسوجات من الحرير والكتان. وروائح عطرية وبلسم و ساعة مائية وأوانى نحاسية كبيرة، وأقاسم السفراء الثلاثة مدة عند الإمبراطور، ثم أرسلوا إلى إيطاليا فابحروا منها إلى المشرق. ثم تنقطع عنا أخبار هذه السفارات ولا نعلم سبباً لهذا. وتختلف المصادر فى كيفية السفارة.

وفى سنة ٨٠٧ م/ ١٩٢ هـ توفى الرشيد وتوفى شارلمان بعد ذلک بسبع سنين أى سنة ٨١٤ م. ودامت هذه الصلات الودية فى عهد لويس إلتقى فقد كان بينه وبين الخليفة المأمون سفارة أرسلها إليه سنة ٨٣١ للميلاد.

فشارلمان لم يتقرب إلى الرشيد ولم يلبّ هذا طلبه ويبادله الصداقة والمودة إلا إذا اقتضت مصالحهما السياسية التى كان محورها الأمور الآتية حسب ما ذكرها الدورى (الدورى، ٢٠٠٦: ١٥٦) و الآخرون:

١. أن يعهد الرشيد إلى شارلمان بالقيام على المصالح العباسية فيما يغلب عليه شارلمان من أرض الأندلس، وأن يشدّ شارلمان أزر الحزب القائم بالدعوة العباسية فى تلک البلاد التى اقتطعها بنو أمية عن ملک بنى العباس؛

٢. أن ينعقد بين العاهلين حلف وتعاون من شأنه أن يطلق يد شارلمان فى ملک بنى أمية بالأندلس ويطلق يد الرشيد فى ملک الدولة البيزنطية بالمشرق. لأنّ كلّا من البيزنطيين والأمويين فى الأندلس أعداء لشارلمان وهارون الرشيد، ولذلک قربت هذه العداوة بين هارون الرشيد وشارلمان؛

٣. أن يسهل الرشيد لزوار بيت المقدس وحجاجه من الفرنجة وأتباع الكنيسة الكاثوليكية سبيل زيارته وحجه، وأن يعفيهم من القيود والتكاليف التى وضعها الرشيد إذ ذاک على أهل الذمة، وأن يحمى أولئک الزوّار والحجاج من عدوان الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية؛

٤. إرادة الرشيد فی إضعاف هذه الدولة الخارجة علی دولته والهاربة من وجه عائلتـه حتـی يتسنی له ضم الأندلس إلی مملكته الواسعة الأطراف؛

٥. آمال شارلمان التی كانت منصرفة إلی إسقاط دولة القيصر فی القسطنطينية أو علی الأقـل جعل دولته متقدمة عليها فی أوربا. ولذلک سرّ كلّ السرور بالفوز العظيم الذی ناله هارون الرشيد فی حروبه فی ذلک الوقت مع عدوه قيصر الروم؛

٦. رغبة الرشيد أيضاً فی إضعاف دولة القيصر، هذا بالإتفاق مع شارلمان أكبر ملک مسـيحی فی ذلک الوقت فيجمل أوربا من جهته؛

٧. رغبة شارلمان وسعيه فی حماية المسيحيين الموجودين فی الشرق الإسلامی تحت حكم الرشيد. فإنّه كان قد طلب من شارلمان أن يحثّ المسيحيين علی زيارة بيت المقدس، ولذا كانت الوفود تصل الخليفة عن طريق بطريق القدس.

٥.٢ نتائج العلاقات بين الحضارتين

كانت نتيجة الإحتكاک و التواصل بين شارلمان والرشيد بالوفود والسـفارات ونتيجـة إحتكـاک الإفرنج بالعرب فی جنوب فرنسا وإسبانيا أن سعی شارلمان بكلّ ما فی وسعه لإصلاح وتجديد قوانين دولته وشرائعها وأصولها مقلداً هارون الرشيد وخلفـاء الأنـدلس فـی نشـر لـواء العلـوم والمعارف. وبذل فی ترويج سوقها فی أوربا جهداً عظيماً. لكنه مع ما بذله من ذلک كان يری فرقاً كبيراً وبوناً عظيماً بين مملكته ومملكة العرب من حيث العلم والمدنية. لأنّ العلم فی أوربـا كـان محصوراً فی الاديار قاصراً علی المواضيع الدينية بما دخلها من المبالغات والخرافـات. وإقتصـر أصحاب العقول والقرائح علی الجدال والمناقشة وأكثر معولهم علی الألفـاظ. فإقتـدی شـارلمان بصديقه ومعاصره فقرّب إليه الشعراء والعلماء وأكبرهم «الكوين» الشاعر العالم وأكثر من نبغ فـی أوربا فی ذلک العصر وما يليه من تلاميذه. فأحدث نهضة حسنة فی العلم والأدب وكان الكـوين ممن تلقی العلم عن العرب. إذ كثير من الإفرنج تلقوا العلم فی مدارسهم. فعمد شارلمان إلی بـثّ روح الإصلاح علی يد مجمع علمی رئيسه الكوين هذا.

فأدخلوا فی مدارس الأديرة وغيرها علوماً ترقی العقل كالتی تلقی فی بلاد المسلمين. لكنهـا لم تثمر لأنّ الأمة لم تكن مستعدة لهذه الفروع العالية فأتتها قبل أوانها والشعب جاهل مقصر حتی فی مبادئ العلم الأولية. فكأنما جاء شارلمان يطلب إصلاحهم قبل الوقت الـلازم فـذهب سـعيه عبثا. فلمّا مات، عادت الأحوال إلی ما كانت عليه وظلت أوربا فی ظلمات الجهلة حتـی عصـر فردريک والحروب الصليبية. فإنّ فردريک الثانی لمّا أفضت إليه للملكة وكان قـد تثقـف علـی

أيدى أساتذة من العرب شبّ على إحترام العرب وآدابهم فقرّبهم إليه وأحسن معاملتهم فخـدموه خدماً جزيلة فى السياسة والحرب والقضاء ولما أراد إصلاح مملكته كانوا ساعده اليمين فى نشر نور العرفان ومعاهد العلم والجامعات فى أوربا التى يرجع إليه فضل السبق فى تاسيسـها وإقبـال الأمم الإفرنجية عليها ولم يزل كذلک متحدياً وسائل الرقى وضروب الإصلاح حتى مـات سـنة ١٢٥٠ فى فيورتينو قرب لوسيرا بين أعوانه وأصدقائه وفـيهم الأطبـاء والعلمـاء مـن المسـلمين واليهود وغيرهم. وقد ذهب بولين، إلى أنّ إصلاحات شارلمان النقدية تأسسـت علـى النمـوذج الإسلامى، كما استنتج أنّه كانت هنـاک تجـارة إسـلامية ناشـطة فـى بحـر الشـمال فـى أيـام الكارولينجيين (شلق، ١٤١٨: ٢٥٥). دعم شـارلمان وابنـه لـويس النهضـة الكارولينجيـة ودفعـا تكاليفها من ممتلكاتها.

٣. النتيجة

النتائج التى توصلنا عبر هذا البحث فيما يلى:

١. جرت العلاقات الودية بين الشرق والغرب فى أواخر القرن الثامن للميلاد وفى أوائل القرن التاسع وأول وفد أتى من فرنسا الى العراق أرسله ببين القصير سـنة ٧٦٢ م أو سـنة ١٤٦–١٤٧ هجرية فى عهد أبى جعفر المنصور.

٢. كان التفاهم الذى توطّد بين العباسيين والفرنجة من أهم الأسباب التى حالت بين البيزنطيين وبين مواصلة العدوان بخوفهم من تعاون الطرفين عليهم و الذى لم يختف بوفاة الرشيد بل ظلـت أواصره معقودة حتى أوائل عصر المأمون.

٣. من الباحثين من يعتقدون أنّ هنالک علاقات بين هارون الرشيد وشارلمان، ومـن ينكـرون وجود أيّة علاقات بينهما وهم يعتقدون أنّ هذه العلاقات التى نسـبت اليهمـا ليسـت إلا خرافـات إخترعتها عقول الرهبان والمؤرخين فى القرون الوسطى تعظيماً لشارمان. أما الذين يعتقـدون بـأنّ الصلات السياسية موجودة بين هذين الأميرين يقولون إنّ كلى الأميرين يحتاجـان إلـى علاقـات سياسية. وليس التقرب والصداقة والمودة بينهما إلا عملاً بما تتطلبـه مصـالحهما السياسـية. هـذه الامور وعوامل أخرى ساعدت على استئناف الصلات بين الخليفة هارون الرشيد وشارلمان الكبير.

٤. هارون الرشيد وشارل الكبير هما رجلا العالم فى أخريات القرن الثامن المـيلادى وبدايـة القرن التاسع. فالرشيد يمثل الشرق بمدنيته المزدهرة أيامئذ وعظمته التى بلغت أوجها، وشـارلمان الكبير، يمثل الغرب الآخذ إذ ذاک فى الاستقرار على أثر نزوح القبائل الجرمانية من مجالاتها فى أوربا الوسطى الى أملاک الدولة الرومانية الغربية، والآخذ بتلک الأسباب التى جعلـت منـه فـى

النهاية باعث دول أوربا الوسطى والغربية الحديثة بأوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية المعروفة وليس من شک فی أنّ كلا العاهلين العظيمين قد سمع بالآخر على أقل تقدير.

٥. كانت نتيجة الإحتكاک والتواصل بين شارلمان والرشيد بالوفود والسفارات ونتيجة إحتكاک الإفرنج بالعرب فی جنوب فرنسا وإسبانيا أن سعى شارلمان بكل ما فی وسعه لإصلاح وتجديد قوانين دولته وشرائعها وأصولها مقلداً هارون الرشيد وخلفاء الأندلس فی نشر لواء العلوم والمعارف.

المصادر

ابوخليل، شوقی (١٩٩٩). *هارون الرشيد امير الخلفاء و أجل ملوک الدنيا*، دمشق: دار الفكر.

أحمد محمود، حسن وآخرين (١٩٨٠). *العالم الاسلامی فی العصر العباسی*، القاهره: دار الفكر.

اينهارد (١٩٨٩). *سيرة شارلمان*، ترجم و قدم له و علق عليه عادل زيتون، دمشق: دار حسان.

بلا اسم (١٣١٥ هـ). «باب أشهر الحوادث و أعظم الرجال: الإمبراطور شارلمان (ملک فرنسا و مؤسس مملكة جرمانيا)»، *الهلال*، العدد ١٩.

البلاذری، ابو الحسن (١٤٠٣). *فتوح البلدان*، بيروت: دار الكتب العلمية.

الدايه، زهدی (١٣٥٠ هـ). «هارون الرشيد و شارلمان»، *مجلة الهلال*، السنة ٤٠، العدد ٦.

الدوری، عبدالعزيز (٢٠٠٦). *العصر العباسی الاول*، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

الديوه چی، سعيد (١٣٨٤ هـ)، «رسل الدول إلی دارالسلام: الصلات بين العباسيين و الفرنک»، *الاقلام*، السنة ١، الجزء ١.

سيد صبره، عفاف (١٩٨٢). *الامبراطوريتان البيزنطية و الرومانية الغربية زمن شارلمان*، بيروت: دار النهضة العربية.

شلق، الفضل (١٤١٨). «محمد و شارلمان و أصول أوروبا: عرض و متابعة»، *الاجتهاد*، العدد ٣٦.

الطبری (د.ت). *تاريخ الرسل و الملوک*، القاهرة: الحسينية.

عبدالعزيز فرج، وسام (١٩٨٢). *دراسات فی تاريخ و حضارة الإمبراطورية البيزانطية*، الاسكندرية.

عبدالله عنان، محمد (١٩٦٠). *دولة الاسلام فی الاندلس، القاهره*، لجنة التاليف و الترجمة و النشر.

غنيمة، يوسف (١٣٣٩). «الخلافة العباسية و الدولة الفرنسية»، *مجلة الهلال*، السنة ٢٩، الجزء ٥ .

لويس، أرشيبلد (١٩٦٠). *القوی البحرية و التجارية فی حوض البحر المتوسط*، القاهرة.

المقريزی، احمد بن علی (٢٠٠٢). *المواعظ والاعتبار فی ذكر الخطط والاثار، حققها وكتب مقدمها و وضع فهارسها ايمن فواد سيد*، لندن: موسسه الفرقان للتراث الاسلامی.